مادة الأدب الإسلامي / المرحلة الثانية

د. ميسون محمد عبد الواحد

المحاضرة الثانية عشرة

عنوان المحاضرة: (أغراض شعرية قديمة ومتطورة – المديح)

إذا جاز لنا أن نسمي شعر الدعوة والجهاد والفتوحات الإسلامية أغراضا شعرية جديدة فرضت معانيها على الشعراء ليعبروا من خلالها عن واقع جديد. من جهة أخرى هناك أغراض تقليدية عُرفت قبل الإسلام واستمر القول فيها قرونا طويلة امتدت حتى عصرنا هذا؛ وذلك لأنها أغراض متعلقة بجوانب النفس الانسانيه، وما فيها من رغبة ونوازع مختلفة من حب ووفاء وكره وحكمة وتأمل يعبر عنها الإنسان بوسائل مختلفة وأساليب متنوعة في كل زمان ومكان.

ولهذا كانت في الشعر العربي خاصة أغراض المديح والهجاء والرثاء والغزل أغراضا واسعة جديدة قديمة تقليدية ومتطورة في الوقت نفسه.

أولا / المديح:

نجد أن المديح في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم– اشتمل على توجيهاته صلى الله عليه وسلم– للشعراء لتكون أشعارهم غير منافية لمبادئ الدين والأخلاق ، وإن لم تكن مدافعة عن الدعوة واعية لها. فكل ما وافق ألحق فهو حسن ويندرج ضمنه كل شعر تغنى بالمثل العليا بغض النظِر عن زمن قائله.

والمديح وسيلة خيرة إذا أحسن استعمالها لتفريق النفوس وتهذيبها ، وإصلاح ذات البين بين أبناء القبيلة الواحدة أو القبائل المتنافرة. إن المديح للشاعر غير التكسبي يكون وسيلة جادة لرفع الضغائن والأحقاد، فهو وسيلة لتمجيد الأخلاق العليا والمثل القويمة التي يرتضيها المجتمع. ويدخل ضمنه كل ما قيل في مديح رسول الله– صلى الله عليه وسلم– فهو ليس مديحا لشخص الرسول وذاته بقدر ما هو مديح لمكانته ونبوته وتوكيدا للرسالة السماوية التي بعث لنشرها بين الناس، ولذلك أعجب الرسول صلى الله عليه وسلم بقول الشاعر:

فثبت الله ما أعطاك من حسن تثبيت موسى ونصرا كالذي نصروا

لأنه دعا له في إطار النبوة التي جاء بها الرسول الكريم أن يثبته الله على أعدائه كما ثبت النبي عيسى ونصره على أعدائه. فالله سبحانه وتعالى هو مرسل الأنبياء وهو مثبت أقدامهم إلى ما يدعون إليه من عبادة التوحيد.

وإذا كان هناك تغيير في هذا الغرض التقليدي في صدر الإسلام فقد كان متمثلا في التوجيه العام للشعراء بالالتزام في أشعارهم، فكان المديح جزءا من هذا الشعر الملتزم وما عاد مديحا شخصيا بقدر ما هو مديح لقضية الدعوة ومديح الرسول- صلى الله عليه وسلم - الذي يعد إعلاء لقيم الرسالة السماوية.

وإذا كان منها ما ظل سائدا في المجتمع العربي انطلاقا من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ومكارم الأخلاق التي ارتضاها العربي قبل الإسلام ظلت معظمها - مما لا يعارض مبادئ الإسلام.- مضافا إليها قيم جديدة جاء بها الإسلام كالتقوى والإيمان الصادق والعدل بين الرعية وأداء الفرائض.

ونجد هذه المعاني الجديدة كثيرة في شعر حسان بن ثابت معددا صفات النبي- صلى الله عليه وسلم- فهو خاتم الأنبياء كرمه الله بالنبوة وقرن اسمه الى اسمه حين جعل تمام ايمان المسلمين شهادة أن لا اله الا الله وان محمداً رسول الله وان الله بعثه هاديا لهذه الأمة فأنذر الناس من مغبة الكفر، وخوفهم النار ورغبهم بالإيمان وبشرهم بالجنة وهكذا يتحول مديح الرسول بيانا لمبادئ الإسلام آلتي جاء بها الممدوح وهو النبي -صلى الله عليه وسلم.

يقول حسان:

أغـرّ عليـه للنبـوة خـاتمٌ　　　مـن الله مشـهودٌ يلـوحُ ويشـهدُ
وضمّ الإلـه اسم النبـي إلـى اسمه　　　إذا قال في الخمس المؤذنُ أشهدُ
وشـقّ لـه مـن اسـمه ليجلَـه　　　فـذو العرش محمـودٌ وهـذا محمـد

ويستمر هذا الأسلوب في مديح الخلفاء الراشدين إذ تبقى قيم المديح ملازمة لشخصية الخليفة الممثل للدين الإسلامي، أو بالأحرى الحاكم الذي اختاره المسلمون، فهذا أبو محجن الثقفي يستقي من القرآن الكريم وصفا لأبي بكر الصديق ليتخذه مادة

لمديحه من الآية القرآنية ، قال تعالى: (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا) فقد مدحه بعناصر إسلامية فهو صدّيق لأنّه صدّق دعوة الرسول – صلى الله عليه وسلم– وهو الصاحب لأنّه صاحب الرسول في هجرته المباركة، يقول أبو محجن:

وسميتَ صدّيقاً وكلّ مهاجر سواك يسمى باسمه غير منكرِ

سبقت الى الاسلام والله شاهد وكنت جليساً بالعريش المشهر

وبالغار إذ سميت خلا وصاحبا وكنت رفيقا للنبيّ المطهّر

ومن ذلك ما مدح به حجر ابن عدي أحد أصحاب الإمام علي – رضي الله عنه – وهو صحابي لازمه في حروبه وعرف حقيقة المواقف السياسية التي جوبه بها الإمام علي– رضي الله عنه – فيدعو الله أن ينصره لأنّه تقي مؤمن صادق في دعوته وعقيدته ، وهو مديح إسلامي يمثل بداية المديح السياسي، يقول:

يا ربّنا سلّم لنا عليّا

سلم لنا المهديّا

المؤمن المسترشد المرضيا

واجعله هادي أمة مهديا

واحفظه ربي حفظك النبيا

وهذا النهج يستمر في مدائح الشعراء في العصر الأموي على اختلاف الممدوحين خلفاء أو أمراء أو ولاة أو أشخاصا عاديين. كذلك نجد الشعراء يستغلون هذه المعاني الإسلامية ليضفوها على ممدوحيهم لعلمهم بأنها تشكل المثل الأعلى في نظر الممدوح من جهة والمجتمع من جهة أخرى. والملاحظ في العصر الأموي أن الحكم كان على أساس الوراثة وليس على أساس الانتخاب أو الإختيار كما كان الحال في العصر الراشدي. والشعراء حاولوا أن يضفوا على ممدوحيهم كل القيم الصالحة في المجتمع المسلم.

فالفرزدق مثلا يمدح سليمان بن عبد الملك بأن الله بعثه عدلا ورحمة للناس كما بعث الله من قبل النبي محمد – صلى الله عليه وسلم– رحمة للأمة، يقول:

جعلت لأهل الأرض أمنا ورحمة وبرءا لآثار الجروح الكوالم

كمـــا بعـــث الله النبـــي محمـــدا علـــى فتـــرة والنـــاس مثـــل البهـــائم

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن شعراء بني أمية حاولوا أن يضفوا على ممدوحيهم فكرة الجبرية وهي أن لا رأي للناس في اختيارهم بل إن خلافتهم جبر وقدر من الله على المسلمين وبذا يشيعون بين الناس مذهبا لفرقة كلامية لتستفيد منها في تثبيت ملكها بين الناس.

ومن ذلك ما نجده في شعر جرير والفرزدق. إذ نجد اللجوء الى الجبرية في تقرير خلافة الأمويين ماثلا في مدائحهم. قال جرير:

نـــال الخلافـــة إذ كانـــت لـــه قـــدرا كمـــا أتـــى ربّـــه موســـى علـــى قـــدرِ

ومن العناصر التي قيلت في موضوع المديح ولكن من وجهة نظر مخالفة إذا كان المداحون يقصدون الحصول على جوائز الممدوح وعطائه؛ فإن هناك شعراء دعوا الى رفض فكرة التكسب عن طريق المديح لأن رزق الإنسان من الله وليس من العباد.

يقول أبو الأسود الدؤلي:

وإذا طلبـــت مـــن الخلائـــق حاجـــة فـــادعوا الإلـــه وأحســـنوا الأعمـــالا

فليعطينـــــك مـــــا أراد بقـــــدرة فهـــو اللطيـــف لمـــا أراد فعـــالا

أنموذج تحليلي على المديح- قصيدة عدي بن الرقاع العاملي:

وعدي بن الرقاع العاملي شاعر أموي مجيد له ديوان حافل بشعر المديح – مديح الخلفاء خاصة- وكان الأمويون قد شجعوا الشعراء على المديح بعد استقرار دعائم الدولة العربية الإسلامية ، ويبرز في مقدمتهم شاعران هما الأخطل وعدي بن الرقاع العاملي الذان يمثلان الشعراء الرسميين أو الداعين الى تأييد السلطة؛ لانصرافهما الى المديح في معظم قصائدهما ، ومحاولتهما الدفاع عن موقف الخلافة وتمجيد المآثر بما يرفع مكانة الخليفة في أعين الناس ويرد على خصومه.

أما قصيدته المختارة فهي تمثل أنموذجا جيدا بين قصائد مديحه، وهي من ناحية تمثل عودة القصيدة العربية الى ربوع القصائد التي رست دعائمها في العصر

الجاهلي، وهي من ناحية أخرى صورة لقصيدة المديح الجديدة التي تمثل العصر الأموي في ظروفه وأحداثه.

تحليل أنموذج من القصيدة، قال عدي بن الرقاع العاملي:

لِمَـن رَسـمُ دارٍ كَالكِتـابِ المُنَمـنَمِ بِمُنعَـرَجِ الـوادي فُوَيـقَ المُهَـزَّمِ

عَفَت بَعدَ أَشباحِ الأَنيسِ كَأَنَّما ال شُخوصُ بِها خيلانُ حُرضٍ وَعَجرَمِ

مَـدَحتُ أَميـرَ المُـؤمِنينَ الَّـذي لَنـا رُبُّنـا فَضـلاً عَلـى كُـلِّ مُسـلِمِ

جَمَعـتَ اللَـواتي يَحمَـدُ اللَهُ عَبـدَهُ عَلَـيهِنَّ فَليَهنَـأ لَـكَ الخَيـرُ وَاِسـلَمِ

فَـأَوَّلُهُنَّ البِـرُّ والبـرُّ غالِـبٌ وَمـا بِـكَ مِـن عَيـبِ السَرائِرِ يُعلَـمِ

وَثانِيَـةٌ كانَـت مِـنَ اللَهِ نِعمَـةً عَلـى المُسـلِمينَ إِنَّـهُ خَيـرُ مُـنعِمِ

إِذا شِـئتَ أَن تَلقـى فَتـى البَـأسِ وَذا الحَسَـبِ الرابـي التَليـدِ المقـدَمِ

فَكُـن عُمَـراً تَـأتي وَلا تَعدوَنَّـهُ إِلـى غَيـرِهِ وَاِستَخبِرِ النـاسَ وَاِفهَـمِ

يفتتح الشاعر قصيدته بالوقوف على الديار التي امحت أثارها إلا بقايا تذكره بالكتاب المنمنم، وهذا تشبيه سبق أن أورده الشعراء في العصر الجاهلي. وأن هذه الديار قد درست أثارها بعد رحيل أهلها عنها. ثم يأتينا بتشبيه آخر هو تشبيه بقايا الديار بالخيلان جمع (خال) ونص على أنه خال من نبت معين وربما يشير في هذا الى لونه الأسود لأنه يريد بقايا الرماد والنار.

في هذه الأبيات يبدأ عدي بمدح الخليفة (عمر بن عبد العزيز) رضي الله عنه– الذي اختاره الله وفضله على كثير من الناس لخلقه ومكارمه، وأنه قد جمع مكارم الأخلاق والصفات المثلى التي ترضي الله سبحانه وتعالى عنه وهي صورة تليق بالخليفة التقي الذي يجب أن يُرضي الله تعالى أولا، ويرضى الناس عنه بسلوكه القويم وعدله في رعيته.

يبدأ الشاعر بتعدداد فضائل الخليفة وكأنه يريد أن يوثقها بالتعداد والحساب مستعملا الأعداد أولا ثانيا... الى أن يبلغ العاشر. ومع تعداد الخصال العشرة لم يتوقف عن ايراد غيرها إلأا أنه ترك طريقة العد والحساب بسبب ثقل الاعداد المركبة أو أعداد العقود وعدم صلاحيتها للغة الشعرية.

ومن تلك الصفات أنه معروف ببره وحسن سره وعلانيته، وأنه نعمة من الله تعالى حين اختاره خليفة للمسلمين لأنه يعاقب الظالم والمعتدي ويمنعهما عن غيرهما.

ثم يؤكد الشاعر على أن الذي يروم أن يقلد أو يقتدي بأحد يكفيه ولا يتجاوزه الى غيره فإنما عليه أن يتشبه بالخليفة عمر بن عبد العزيز ويكون مثله فهو خير من يقتدى به لاشتماله على الصفات الحميدة والفضائل العديدة من شرف وحسب ونسب كريم، وتقوى وصلاح ، والتزام بالدين وحسن السلوك والمعاملة العادلة مع الرعية.

ويصف الشاعر ممدوحه بالكرم والإنعام على المحتاجين وأنه في هذا لا يعد مبذرا، وإنما هو معطاء قدر ما يقتضيه الحق والعدل. فالعطاء للجميع وهنا يأتي عدي بصورة فريدة هي أن ممدوحه قد أتعب كتابه المكلفين بتدوين أسماء المحتاجين من شدة طلبه العدل والأنصاف في توزيع العطاء والخير بين الناس جميعا.

فهو قد حجبت عنه الفواحش، تقي السريرة ، تقي العرض ، بريء من الدنس ، قوي على الأعداء، مدافع عن المضلومين، نسبه شريف ، وآباؤه خلفاء عرفوا بالعدل، وهنا إشارة الى جد الخليفة عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل عمر بن الخطاب.

وهو يختم قصيدته بأنه كان مادحا للخلافة على سبيل تثبيت الحق وتكريم من يستحق التكريم، وأنه صادق في هذا الثناء والمديح.

وهكذا نرى أن معظم المدح يركز على الجانب المعنوي من صفات الشخصية كالفضائل والصفات المتعلقة بالكرم والصدق والعفة والعدل والإحسان والقوة في الحق فضلا عن الشرف والنسب الكريم والتاريخ القويم المشرّف للشخصية الممدوحة التي تستحق المدح والاقتداء بها لأنها صادقة قولا وفعلا.